المناهج النقدية: إشكالية التطبيق والوعي بالأصول

د/ فاطمة سعدون

جامعة محمد لمين دباغين/سطيف(2) (الجزائر)

الملخص:

نسعى من خلال هذه الورقة الحديث عن المناهج النقدية الحديثة الغربية، وهل يمكن لهذه المناهج أن تكون مناسبة للنص العربي؟

هل استطاع العرب استيعاب أصول المنهج النقدي من رحم نظرية المعرفة وهل كان تطبيقها على النص العربي دون إشكالية المرور على تمحيص للأصول وتكييف لها؟

وذلك لأن واقع الممارسة النقدية في عالمنا العربي المعاصر يحتاج إلى بناء وعي جديد في محاولة لمعالجة هذه الإشكالية.

Abstract:

There is much talk about the criticism methods and the possibility of approaching it to the Arabic text. We seek through this paper to talk about modern Western criticism approaches. May these approaches be suitable to the Arabic text? Did the Arabs manage to realize the principles of the criticism approach from the womb of the theory of knowledge? Is it applied to the Arabic text without the problematic on the scrutiny and adaptation of the principles to it? This is because the reality of the criticism practice in the contemporary Arab world needs to build up a new awareness in an attempt to address this problem.

مقدمة:

إن الحديث عن المناهج النقدية في النقد المعاصر عند العرب أصبح الشغل الشاغل للكثيرين، ولعل هذا ما جعل المهتمين يحاولون عقد المؤتمرات ونشر الأبحاث عن إشكالية المنهج وتطبيقاته على النص الأدبي.

وإن كانت هذه الإشكالية لم تظهر عند العرب قديما، كونهم اعتمدوا النقد الذي يقوم على تراثهم اللغوي والبلاغي، فإن الانفتاح الحاصل في العصر الحديث؛ وتبعا لتغييرات الوضع الراهن

آنذاك؛ والذي كان على جميع الأصعدة كان سببا في الانفتاح الثقافي كذلك، وكانت أولى مظاهره الانبهار بالمناهج النقدية الغربية ومحاولة الاستفادة منها في مقاربة النص العربي.

وهذا ما جعل النقاد العرب يتطلعون لما عند الآخر محاولين الأخذ عنهم واستيراد ما لديهم، خاصة وأن النهضة الأدبية في تلك الفترة كانت تسعى إلى علمنة الأدب وإعطاء دفق جديد لروحه.

1/ الدراسات النقدية وإشكالية المنهج:

لعل أهم مقاصد النقد الحديث هو استكناه خبايا النصوص الأدبية؛ عن طريق التفاعل مع مضامينها والغوص فيها، لذا كان المنهج النقدي وسيلة هذا الفعل وطريق الناقد للبحث. وإن كان قديما يقوم على الذوقية والذاتية ويبحث في المضامين انطلاقا من جوانب خارجة عن النص، فقد أصبح الآن إجراءات موضوعية تسعى إلى نقد النص من داخله، وهذا ما لمسه النقاد العرب في مناهج الغرب بعد الاطلاع على إنجازاتهم في مقاربة النصوص.

ولعل هذا الانفتاح غير المشروط هو ما جعل الناقد العربي يلجأ إلى استيراد المنهج ويدعو إليه بشكل حماسي، ماجعل الممارسات النقدية العربية الأولى تأتي " في شكل يسمح غالبا بالتلقي ولا يسمح بالمناقشة، وكانت أغلب الدراسات تفتقد إلى المرونة، وكأن النقاد في تطبيقهم للمناهج الأوربية يطبقون مبادئ منطقية محددة ومصطلحات جاهزة، ظنا منهم أن الأدب يمكن أن يتحول إلى علم صارم، مما أدى إلى التباس الخطاب النقدي لدى المتلقي".[1]

إن هذا الالتباس الناجم عن الانفتاح الذي لم يتقيد بشروط، والذي كان أشبه بارتماء في أحضان هذا الآخر، دونما تفكير فيما يحويه إنتاجه المعرفي والنقدي من خصال التربة التي نشأ فيها، أدى إلى نفور المتلقي من المقاربات النقدية المعاصرة للنصوص الأدبية. بل أصبح النص الإبداعي غريبا عن متلقيه نظرا لما أحاط به من غموض نتج عن المقاربات النقدية له، "خصوصا وأن أبرز مظاهر الأزمة التي يتخبط فيها الخطاب النقدي العربي المعاصر تعود فيما تعود إليه إلى الانفتاح اللامشروط الذي شهدته الدوائر الفكرية العربية على غيرها من الغرب، دون محاولة لتصفية هذا الوافد من شوائب الانتماء إلى تربته الأصلية في تربة الثقافة العربية."[2]

ولكن إن كان ظهور هذه الإشكالية ناجم بالأساس عن غياب الوعي بالأصول انطلاقا من النهل من مكتسبات الآخر، والذي لم يكن كمعادلة موازية وموازنة، فالأخذ كان عن طريق استلهام النتائج المتاحة للنظريات الغربية، وليس استلهاما لتداعيات هذه النتائج الناجمة عن مشروع غربي قائم على خصوصية البيئة والظرف الراهن الذي أنتجت فيه، إلا أن هذا لا يعني

التهجم على النقاد العرب الذين تحمسوا لهذه النتائج كونها تبحث عن علمنة للأدب؛ انطلاقا من استنطاق النص وليس البحث خارجه ولكن لا بد من أن "نتوجه إليهم طالبين منهم دراسة النظريات والمناهج الحديثة ومصطلحاتها وإقامة الأبحاث حولها وشرحها للقارئ قبل تطبيقها بحماسة دافعها ذلك التقديس اللامنطقي لكبار المثقفين."[3]

لأن الإشكالية الحقيقية ليست في البحث عن خلفيات المناهج المعرفية فقط، كونها تقوم على سند فلسفي قبل أن تكون مجرد إجراء عملي، بل الإشكال هو كيفية تقديمها للقارئ ضمن نصوص إبداعية (لأن النقد نص إبداعي كذلك)، دونما شرحها له أو إلقاء الضوء عليها وليس على تطبيقاتها ونتائجها، ولعل هذا ما جعل قضية المناهج النقدية تعد "من القضايا الشائكة التي كانت وما تزال تحظى باهتمام الكثير من أهل الدراية في مجال البحث. وهو اهتمام يعبر عن مدى القيمة الحقيقية المتزايدة التي أصبحت تعنى بها هذه القضية في مجال البحث العلمي بمختلف جوانبه ومستوياته، ولعل هذا ما يفسر بلا شك العدد الهائل من الدراسات والأطروحات التي أعدت في سبيل الوقوف عند جوهر القضية. بيد أن المتمعن في هذا الكم الهائل من الدراسات لا يجد ما يثلج الصدر ويشفي الغليل إذ غاب عن أصحابها الوعي المنهجي فكانوا بعيدين عن عمق الإشكالية المطروحة في تشعباتها وأبعادها المختلفة."[4]

ولكن هل الأزمة الفعلية للمنهج تنحصر فقط في الانفتاح اللامشروط على هذا الوافد الجديد إلينا؟ أم أن الإشكالية الحقيقية له تكمن في خصوصيته كأداة إجرائية ذات خلفيات معرفية تقوم على خصوصية النص الغربي الذي تشتغل عليه؟ إذ إن إتيان النص الإبداعي بوسائل إجرائية قصد استكناه خباياه يخضع بالضرورة لخصوصية النص وبيئة منشئه، لذلك فما يصلح كتطبيق على النص الغربي قد لا يصلح بالضرورة كتطبيق على النص العربي.

وعليه يمكن أن تتحدد الأزمة في عدم محاولة النقاد العرب تصفية هذا المنهج من شوائب انتمائه لترتبه الأصلية حين الاستعانة به لمقاربة نصوص في تربة ثقافية عربية، لذا فالمتتبع "للممارسات النقدية في خطاب الحداثة النقدية العربية يجد أن المناهج المستخدمة غربية الأصل مما يضع مستخدميها من النقاد أما إشكالية التأصيل المنهجي."[5]

إن التأصيل المنهجي عند العرب في النقد المعاصر كإشكالية أسهم في بلورة عدة وجهات نظر لهذا المنهج، فنجد كثيرا من النقاد يتناولون النص الإبداعي بالمقاربة تبعا لمنطلقاتهم الذاتية، والتي تكون في كثير من الأحيان غير محيطة بكل جوانبه، وبخاصة عند بداية الاحتكاك بالغرب، إذ يرى سعيد يقطين أنه " منذ بداية احتكاكنا بالغرب على الصعيد الأدبي ونحن لا نأخذ من النظريات

والاتجاهات المختلفة سوى نتائجها، وما فكرنا قط (...) في استلهام الروح العلمية التي يشتغل بها أصحاب النظريات. إن هذا السبيل يمكن أن يقودنا في حال القيام به إلى التفكير في الأخذ بالأسباب العلمية وهي إنسانية إلى تحصيل نتائج مختلفة، بناء على ما يقدمه النص الغربي من خصوصيات هي وليدة المجتمع الغربي"[6]

ولعل هذا القول جامع لأصل الإشكالية لدى النقد العربي، فلا يمكن أن نتصور نقدا يمارس المقاربة للنصوص وتكون أداته في هذه المقاربة مستمدة من نتائج مناهج لم تُعَدْ بالأساس لمقاربة هذا النص المعني.

وهذا هو الفرق في الممارسة بين الغرب والعرب، إذ إن " ما يلاحظ في الخطاب النقدي الغربي أن النص الإبداعي هو الذي يحدد طبيعة هذا الخطاب، ولهذا تنوعت المناهج وتطورت وانقضت مناهج وظهرت مناهج أخرى، وما كان ذلك من زاوية جوهرية سوى مواكبة تطور الخطاب النقدي لتطور النص بنيته ومضمونه الفكري..."[7] فتنوع المناهج الغربية كان مقترنا بالخطاب الأدبي الغربي والذي فرض عليه ذلك مواكبة لحركية النصوص في هذه البيئة، على العكس مما هو حاصل في النقد العربي، إذ "إن تنوع المناهج الغربية ومواكبتها لحركة الإبداع وفي المقابل نهمنا من الشرق للإفادة من تلك التعددية وتطبيقاتها على التراث لم يكن تأثيره إيجابيا فحسب، فقد أوجد غياب الوعي بخصوصية الثقافة الغربية إشكالية في المناهج النقدية وإشكالية في المصطلح النقدي."[8]

إن اهتمامنا بالمنهج اعتبارا لنتائجه خلق أزمة للنقد العربي كانت في أساسها عدم الوعي بماهية المنهج، وليس إهمال خلفياته الابستمولوجية فقط، ذلك أنهم كانوا يرون المنهج كأدوات إجرائية أو وسائل تتاح للناقد من أجل مقاربة النص الأدبي، ولكونه أدوات إجرائية فهو عندهم بمثابة القالب الذي يؤتى به لوضع النص بداخله بغرض تجريبه، ولذلك كانت هذه الدعوة من المظاهر السلبية للانفتاح غير المشروط على الآخر، إذ إن تهافت النقاد العرب على المنهج واكبه " إهمال الخلفية المعرفية (الابستمولوجية) التي تقف وراءها بدعوى أنها مجرد إجراءات مستقلة عن الفضاء الفكري الذي نشأت فيه."[9]

إن هذه الدعوى لا يمكن لها أن تستقيم، وبخاصة أن البيئة التي نشأ فيها المنهج الغربي تعكس مدى ارتباطه بخلفياته الفلسفية والابستمولوجية التي كانت سببا في نشأته، مع أن الكثيرين يعتقدون بأن هذه المناهج لا تعدو أن تكون مجرد أدوات إجرائية "يتوسل بها لتحليل النصوص

الإبداعية متناسيين المضامين الثقافية التي تحملها هذه المناهج والتي تتلاءم والبيئة الحضارية الغربية التي أفرزتها."[10]

وإن كان الوعي بالأصول قد خلف أزمة للنقد العربي؛ لمقاربته النص العربي بمناهج غربية المنشأ والأصل، فإن إشكالية تطبيق هذه المناهج في المقاربة كانت أكبر من الأزمة الأولى كونها نتاج لها تابعة لتأثيرها، فلا يمكن أن نتصور أن يتم اتخاذ وسيلة ما لعمل معين دونما معرفة مسبقة بخلفيات عمل هذه الوسيلة وما تحمله من دواع، ولعل هذا ما جعل بعض المشتغلين على النص الأدبي العربي يجعلونه "كمعمل تجريبي للمناهج النقدية مع أن مأربها هو إضاءة النص، فغدت النصوص الإبداعية حقلا تجريبيا لتقديم المناهج الحداثية، فتحول المنهج من مجرد وسيلة إلى غاية يستدل بالنص على مدى كفايته الإجرائية."[11]

إن تحول المنهج إلى غاية وتطويع النص ليلائم المنهج، بل وحتى استنطاقه بما ليس فيه سعيا لتبرير أداوت هذا المنهج المستخدم بحثا عن سمة الحداثة، جعل "الناقد المبرمج الذي يتبنى المناهج النقدية ويطبقها على النص العربي لا يخدم تراثنا ولا ثقافتنا المعاصرة في شيء، بل هو بهذا التبني والتطبيق يغوي ويربك و يبعثر ويهدر ويخرب..."[12]، خاصة في ظل الاعتقاد السائد بأن المنهج مجرد أدوات إجرائية مفرغة لا يمكن أن تحمل شوائب تربتها الأصلية وبنيتها الفكرية، لذلك فإن " هذا التهافت على المناهج الغربية في غياب الوعي بحجم المخاطر المترتبة على مثل هذا الانتماء في أحضان آليات إجرائية غربية المنبت، وتطبيقها بشكل آلي على نصوص عربية لها خصوصيتها الحضارية يؤدي إلى تشويه هذه النصوص حينا، وطمس دلالتها واختزالها أحايين أخرى"[13]، ولعل هذا ما أسماه سعيد يقطين بالحذلقة الأدبية حين رأى أن من مظاهرها "عدم أخذنا بالقيم العلمية مأخذ الجد عندما يتعلق الأمر بالممارسة، فكم من المشتغلين بالأدب يتحدث بمصطلحات أدبية جديدة تولدت في نطاق علوم جديدة في الغرب، لكن بمجرد ما أن يتم التساؤل عن إطارها النظري وخلفيتها العلمية حتى تصاب بخيبة أمل."[14]

وإن كان تشويه النصوص في بعض الأحيان الناجم عن مقاربتها بمناهج ذات أصول غربية وتحمل فكر البيئة والمنشأ، "ولما كانت هذه المناهج النقدية تستمد لبّ عملها من المعارف التي تنتمي إليها، أو التي استعانت بعض مفاهيمها ونظرياتها تمثل القوانين الصارمة والأنظمة الثابتة حصل التصادم ووقعت المنافرة لأن السلطة العلمية آمرة والخطاب الأدبي يرفض الائتمار والانقياد."[15] فإن كان هذا هو الحال بالنسبة للنص الغربي، فكيف بالأحرى للنص العربي الذي سيرفض الانقياد لمنهج لم ينتج بالأساس لمقاربته، أو أخذ في حسبانه خصوصيته الثقافية والمعرفية،

لأن هذا المنهج دخيل على هذه البيئة العربية؛ كما أنه لم يكن خاليا من خلفياته وزخمه الفكري والمعرفي.

وهذا ما زاد من أزمة النقد العربي المعاصر إذ "إن مناهج أغلب الباحثين في شرقنا العربي... مناهج إما غامضة أو محرفة عن أصولها في الثقافة الغربية."[16] كما أنها " لا تنطلق من النص قصد استكناه دلالته، بل تسعى لإيجاد مبررات لأدوات المنهج المتوسل به فيحدث التنافر بين النص والمنهج، فتغيب الدلالة وتطمس معالم النص ويسود الغموض، وتغطية لهذا الغموض يلجأ الناقد الحداثي؛ سيرا على أثر النقاد الغربيين؛ إلى استخدام الجداول والمنحنيات والخطاطات التي تزيد من غربة المنهج وفشله في الوصول إلى استنطاق الدلالة، بل إنها عبرت حقيقة عن الاضطراب الفاضح لدى هؤلاء النقاد في تحديد مفهوم قار للمنهج وأدواته الإجرائية."[17]

فبعد غياب الوعي بأصول المنهج وخلفياته المعرفية، وبعد تطويع النص ليلاءم المنهج أصبحت المقاربات النقدية للنصوص العربية تنفر القارئ منها وتجعله يبتعد عنها، متجنبا غموضها وانغلاقها في منحنيات وبيانات زادت من غربة النص عن متلقيه أكثر مما أسهمت في تقريبه وتجليه، ولعل إشكالية المصطلح كانت من أكثر الصعوبات التي تدخل القارئ في متاهة في محاولة منه للقبض على إجراءات المنهج وتتبعها. إذ ومع تبني مقولات الحداثة وما بعد الحداثة سعيا وراء التجديد "ظهرت في نصوص النقد والدراسات الأدبية مصطلحات غربية جديدة، أخذت بمرور الزمن تتراكم دون أن تلفت انتباه السواد الأعظم من النقاد والباحثين، أو من المؤسسات العلمية اللغوية حتى أصبحت ظاهرة استخدام المصطلحات الحديثة في النصوص، أو في الأوساط الأدبية دون العناية بالبحث عن مضمونها في الإطار الذي نشأت فيه أو الذي تم النقل إليه."[18] وهذا ما زاد من غربة المنهج وصعوبة فهم إجراءاته حيث "أكد النقاد العرب على جدلية العلاقة بين المنهج والمصطلح، إذ يحدد المنهج المصطلح ويؤطره، ويؤكد المصطلح المنهج ويوضحه، فإذا لم يكن المصطلح واضحا يتأثر المنهج بالتأكيد ويسبب مشاكل في الاستيعاب وصعوبة في تلقي المادة لدى القارئ."[19]

2/ إشكالية المصطلح:

المصطلح كالمنهج خلق أزمة للنقد العربي في محاولة ضبطه وتقديمه للمتلقي، وبخاصة أن النقاد العرب غالبا ما يقدمون المصطلح من خلال نظرتهم الذاتية كاجتهاد خاص، دونما مرجع أو عودة للمصطلح الغربي.[20]

لذلك كان المصطلح الغربي الواحد يقدم بأكثر من مصطلح في الخطاب النقدي العربي، فإن كان عبارة عن مصطلح واحد محدد المفاهيم لدى الآخر، فإنه يصبح حين انتقاله للأنا عبارة عن مجموعة من الكلمات تبعا لتوجه صاحب الممارسة، مما أشاع الغموض؛ والذي خيّم على خطاب هؤلاء النقاد بل وأصبح سمته التي لا يتسم ألا بها، ويرجع السبب في ذلك إلى " تنفس المصطلح النقدي المستخدم في تربة غير تربته، وهو إن دل على شيء إنما يدل على الخصوصية الحضارية التي ينتمي إليها المصطلح، وأن تجريد هذا المصطلح من دلالاته التي اكتسبها في بيئته الأصلية أو محاولة نقله إلى الثقافة العربية بكل ما يحمله من زخم فكري يخلق أزمة مصطلحية بين المشتغلين في حقل الدراسات النقدية، فتتعدد الترجمات للمصطلح الواحد وينحاز كل ناقد للمرجعية التي يدين بها، ويبقى الخطاب عائما بالمصطلحات الغربية فتغيب الدلالة ويشيع الإلغاز فتكون الأزمة."[21]

وهكذا تتضاعف أزمة النقد العربي فغياب الوعي بأصول المنهج، وعدّ المنهج مجرد أدوات إجرائية مفرغة، بالإضافة للغموض في مصطلحاته أوجد صعوبة للمتلقي حين بحثه عن دلالة النص، لأنه إن كان المنطلق تشوبه الشوائب فلا يتوقع من النتائج إلا أن تحيد عن حقيقة النص العربي ولا تقدمه كما يقدم معنى النص الغربي الذي يقارب بمناهجه.

إن تعدد المصطلحات في الخطاب النقدي المعاصر لم يكن خادما لهذا الخطاب كونه عسّر الفهم أكثر مما يسّر، إذ إن هذا التعدد ولّد فوضى في تلقي المصطلح من منابته الأصلية، حيث نجد المصطلح الواحد بتفرعات عديدة. ولكن هل غاب عن النقاد العرب هذا الإشكال؟ وإن فقهوه فلِمَ الحاجة إلى تعدد المصطلحات في الخطاب النقدي العربي؟

إن في منظور الأغلبية من هؤلاء أن كثرة المصطلحات في أي ممارسة نقدية أو عجّ الملاحق في نهايتها هو دليل الحداثة وصورة للانفتاح أكثر على الآخر. في حين أن حقيقة الأمر هو "أن تعدد المصطلحات في العمل النقدي ليس دليلا على جودة العمل فالمسألة ليست بكثرة المصطلحات بل بقدرة الناقد على توظيفها توظيفا صحيحا في الموضوع والمنهج والرؤيا النقدية."[22]ولعل كثرة المصطلحات راجع إلى الرغبة في اعتماد رؤية شاملة تحيط بمختلف المناهج النقدية الحديثة، ولكنه في حقيقة الأمر لا يخدم العملية النقدية.[23]

إن إشكالية التعدد المصطلحي هي واحدة من إشكاليات النقد العربي المعاصر، التي باتت تشير إلى حجم الأزمة التي يتخبط فيها الخطاب العربي، والتي تظهر جلية في الغموض المسيطر عليه. وهذا "يدل على مدى تأزم هذا الخطاب ومدى عجز الناقد العربي عن تحقيق أصالته وتمايزه

بتأسيس مشروع نقدي يقوم على مراعاة خصوصية الحضارة العربية متبنيا مشروع ثقافة الاختلاف مع الآخر / الغرب حتى يتملص من تبعيته."[24]

فتعدد المصطلح لا يعني بالضرورة القدرة على التعامل مع الآخر والتعايش معه، كما لا يعني تعدد الثقافات، لأن الأمر في آخره كان تبعية لهذا الآخر وتخلّ عن خصوصية الهوية العربية. لأن "التعدد قد يكون إثرائيا إذا أحسن الفهم والتمييز والانتقاء والتوظيف (ولكنّ) سعي الثقافة المنتمية للأقوى في عصر المعلوماتية إلى جذب الثقافات المنتمية للأقل قوة جعل أبناء تلك الثقافات يتخلون عن أرصدتهم المرتبطة بالهوية وبالخصوصية في مقابل الهرولة نحو سراب توحيد الثقافات."[25]

وهذا التخلي عن الأرصدة المرتبطة بالهوية شكل خطرا على الانتماء العربي، بداية من انسلاخ خطابه النقدي عن أصوله التراثية وارتمائه في أحضان هوية تختلف عنه. إنه الخطر الذي لم يلتفت إليه من انبهروا بالحداثة الغربية، إذ كان النقل الكامل عنها تمهيدا للتبعية الثقافية وترسيخا لها، وذلك بعد أن عمي الكثيرون ممن يطالبون بنقل مفاهيم الحداثة الغربية ومصطلحاتها إلى الخطاب العربي بكل عوالقها المعرفية.[26]

هذه التبعية التي كانت ثقلا على النص العربي لأننا حاولنا إنطاقه بما ليس فيه أحيانا، وتحميله ما لا يستطيع تحمله أحيانا أخرى، في محاولة للتوفيق بين النتيجة المحصل عليها وآليات المنهج المستخدم. وهذا ما أدى إلى ظهور الممارسات النقدية بشكل شاحب "وكأنها ارتدت زيا غربيا عن طبيعتها، فقد أصبح همها هو استعراض أكبر عدد ممكن من المصطلحات الأجنبية، حتى لو كان بطريقة قسرية يغدو معها النص الإبداعي مسرحا للتجريب ويفقد قيمه الجمالية التي طمستها الجداول والخطاطات والدوائر، وكأن الأمر يتعلق بتجربة علمية لا بتجربة إبداعية، وهو ما أدى إلى انسلاخ النقد عن أصول عمله، فوقع الانفصام بينه وبين الإبداع لا لشيء إلا لأن المصطلح النقدي لم يعد وسيلة لتقريب المعنى، بل أصبح غاية في حد ذاته وتحول إلى قضية ترجمة وتعريب ليس إلا."[27]

إن كون المصطلح النقدي قد تحول إلى وسيلة لإلغاز المعنى وإخفائه بعد أن كان وسيلة لتقريبه وتبيانه، راجع إلى حقيقة أن مضمون المصطلح " هو محصلة التفاعل بين النظرية التي أفرزت المصطلح من ناحية ومناخه الفكري والثقافي من ناحية أخرى."[28]ولذلك فإن أغلب المصطلحات المستخدمة في النقد العربي المعاصر " تعبر عن خصوصية الثقافة الغربية؛ التي تجد أصولها في الفكر الفلسفي الذي يعد بمثابة الحقل الذي أينعت فيه المصطلحات النقدية المعاصرة، وأي عزل لهذه

المصطلحات عن سياقها المعرفي وإسقاطها على نصوص إبداعية ذات خصوصية حضارية مختلفة عن حضارة المصطلح، أو سوء فهم دلالاتها، يؤدي إلى الوقوع في الخلط والغموض والإلغاز، وبالتالي الوصول إلى أزمة في المصطلح. لأن المصطلح ينمو وينشأ في حقل معرفي معين يكون بمثابة الراعي الذي يسهر على إكساب هذا المصطلح شرعية الوجود في مجال المعرفة، إلى أن يستقيم مصطلحا مستويا على سوقه فيقذف به في مجال الاستعمال حتى يؤتى أكله."[29]

لكن الإشكالية لم تتوقف على مستوى النقاد فقط بل نلحظ تأثيرها على مستوى الأكاديمي الجامعي فأغلبية الدراسات (بحوث التخرج، مذكرات الماجستير، ورسائل الدكتوراه)، والتي تسعى إلى تطبيق هذه المناهج الغربية على النص العربي يعوزها التدقيق الصائب، ذلك أن إشكالية المنهج المستورد من الآخر والتي كانت على مستوى النقاد قد تغلغلت إلى مستويات أخرى، فنجد الطالب مثلا يتبني منهجا معينا ليس لأنه الأنسب للمقاربة أو لتمكنه من آلياته، بل لأن الموضة في المقاربة هي هذا المنهج. وهذا ما زاد من عمق الإشكالية حتى أضحت سببا في التيه الذي اتسم به النقد العربي المعاصر، ولأنهم لم يعطوا بديلا لمناهج تنتج من رحم حقل المعرفة العربي، والتي تكون مناهج بخصوصية التربة العربية الأصيلة مازال التيه متواصلا ولم نرَ بداية للخروج منه، ولذلك يبقى التساؤل.

هل يجب علينا إذن أن نتخلى عن هذا النقد ونرفضه لأنه من بيئة ومنشأ غير بيئتنا ومنشئنا، أم أن الأمر يتطلب إعادة نظر إلى هذا الوافد إلينا؟

خاتمة:

من خلال ما تقدم يتبين لنا أن أصل الإشكالية في الخطاب النقدي العربي المعاصر، تعود فيما تعود إليه إلى أن المنهج الذي تقارب به النصوص العربية، والذي أنتج في ثقافة غربية لا يمكن إن تنطبق في خصوصياتها على الثقافة العربية، كما أن المنهج ليس مجرد أدوات إجرائية. وعليه لا بد لنا من "أن نتجاوز مفهوم المنهج على أنه المعرفة الوثوقية التي تغير نفسها دائما لإرضائنا وتوفير الإجابات إلى مفهوم المنهج على أنه أداة للأسئلة أو الأدلة ذات طابع إشكالي يبلور الأجوبة بدورها إلى أسئلة؟ أو بعبارة أخرى هل تعمل مقارباتها على استنطاق المعرفة الكامنة داخل النصوص لبلورتها ضمن أسئلة جديدة أم أنها لا تعيد إلا بعث المستهلك / الجاهز / النمطي؟"[30]

كما يجب علينا أن نعي ماهية المنهج النقدي فهل هو " في جوهره أداة un outil ومنظار للكشف والتحليل والمعالجة النقدية وبالتالي أداة موصلة إلى صياغة الأحكام وتشكيل التصورات،

أم إنه يتضمن الأحكام والتصورات في ثنايا إجراءاته ومبادئه؟ ثم هل يكفي أن نكون على معرفة بالمنهج كأداة للدراسة ومنظار للتحليل حتى نوفي النصوص حقها من النقد الموضوعي، أم يجب أن تتوافر لدى الدارس فضلا عن ذلك تقنية (savoir – faire) une technique استخدام المنهج كأداة؟"[31]

إن الإجابة عن هذين التساؤلين قد تساعد في بلورة نظرة جديدة للخطاب النقدي العربي، بحيث تكون الأولوية للانطلاق من خصوصية الثقافة التي ننتمي إليها، والتي نقارب نصوصا من قلب خصوصيتها. لذلك فإن "مهمة الناقد العربي المعاصر باتت على قدر كبير من الأهمية والخطورة، ولن تمضي في الطريق الصحيحة إلا بالتواصل الفعال مع التراث النقدي بقصد إعادة قراءته. وعلى هذا الناقد أن يستعين بالنقد الغربي كي يكون خطابه حيويا لا خطابا أكاديميا غير قادر على تمثيل العصر، ولا شك في أن الوعي بالتراث والوعي بالحداثة سيجعلان الناقد يعيش عصره وينتج خطابا نقديا تكامليا.[32] فيكون خطابا قادرا على مقاربة النص الإبداعي من منطلقاته الفكرية والثقافية وتبعا لخصوصية بيئته. دونما تيه في خطاب مستورد كانت عواقب مقاربة النص العربي به غير محمودة في كثير من الأحيان.

هوامش البحث:

[1] زبيدة القاضي: النقد العربي المعاصر من النسقية إلى الإبداع. تحولات الخطاب النقدي العربي المعاصر، مؤتمر النقد الدولي الحادي عشر2006م، عالم الكتب الحديث، جدارا للكتاب العالمي. 2008م، ط1، ص 65

[2] عبد الغني بارة: إشكالية تأصيل الحداثة في الخطاب النقدي العربي المعاصر – مقاربة حوارية في الأصول المعرفية_، الهيئة المصرية للكتاب، 2005م، دط، ص 135.

[3] رابح بوحوش: معضلة الخطاب الأدبي وأزمة المناهج النقدية (نحو سلطة النص)، تحولات الخطاب النقدي العربي المعاصر، مؤتمر النقد الدولي الحادي عشر2006م، عالم الكتب الحديث، جدارا للكتاب العالمي. 2008م، ط1، ص 68.

[4] عبد الغني بارة: إشكالية تأصيل الحداثة في الخطاب النقدي العربي المعاصر، ص 133

[5] المرجع نفسه، ص134/133

[6] سعيد يقطين: الأدب والمؤسسة والسلطة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، بيروت، لبنان، 2002م، ط1، ص 69.

[7] إبراهيم أحمد ملحم: الخطاب النقدي وقراءة التراث، نحو قراءة تكاملية، عالم الكتب الحديث، إربد الأردن، 2007م، ط1، ص 10.

[8] إبراهيم أحمد ملحم: الخطاب النقدي وقراءة التراث، ص 10.

[9] عبد الغني بارة: إشكالية تأصيل الحداثة في الخطاب النقدي العربي المعاصر، ص 139.

[10] المرجع نفسه، ص 134

[11] المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[12] إبراهيم أحمد ملحم: الخطاب النقدي وقراءة التراث، ص 183.

[13] عبد الغني بارة: إشكالية تأصيل الحداثة في الخطاب النقدي العربي المعاصر، ص 135، 136.

[14] سعيد يقطين: الأدب والمؤسسة والسلطة، ص69.

[15] رابح بوحوش: معضلة الخطاب الأدبي وأزمة المناهج النقدية (نحو سلطة النص)، ص 672.

[16] سمير سعيد حجازي: إشكالية المنهج في النقد العربي المعاصر، دار طيبة للنشر والتوزيع والتجهيزات العلمية، القاهرة، 2005م، د ط، ص 06

[17] عبد الغني بارة: إشكالية تأصيل الحداثة في الخطاب النقدي العربي المعاصر، ص 134، 135.

[18] سمير سعيد حجازي: إشكالية المنهج في النقد العربي المعاصر، ص 194

[19] زبيدة القاضي: النقد العربي المعاصر من النسقية إلى الإبداع، ص 66

[20] المرجع نفسه، ص 67.

[21] عبد الغني بارة: إشكالية تأصيل الحداثة في الخطاب النقدي العربي المعاصر، ص 279 /280

[22] زبيدة القاضي: النقد العربي المعاصر من النسقية إلى الإبداع، ص 68

[23] المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[24] عبد الغني بارة: إشكالية تأصيل الحداثة في الخطاب النقدي العربي المعاصر، ص362

[25] إبراهيم أحمد ملحم: الخطاب النقدي وقراءة التراث، ص 175.

[26] ينظر عبد العزيز حمودة: الخروج من التيه، دراسة في سلطة النص، عالم المعرفة، مطابع السياسة، الكويت، 2003م، ص 08/ 09.

[27] عبد الغني بارة: إشكالية تأصيل الحداثة في الخطاب النقدي العربي المعاصر، ص362

[28] سمير سعيد حجازي: إشكالية المنهج في النقد العربي المعاصر، ص.193

[29] عبد الغني بارة: إشكالية تأصيل الحداثة في الخطاب النقدي العربي المعاصر، ص314.

[30] خير الدين دعيش: المناهج النقدية ونظرية المعرفة (نحو تأسيس لوعي منهجي)، مجلة كلية الآداب والعلوم الاجتماعية، جامعة فرحات عباس سطيف الجزائر، العدد 07 السداسي الثاني، 2008م، ص206.

[31] المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[32] إبراهيم أحمد ملحم: الخطاب النقدي وقراءة التراث، ص 224.